المقتطف

الجزء السابع من السنة السادسة * ١ ك ١٨٨١

العلّة والمعلول

وهي محاورة بين النظري والضروري

اخبرنا الباحث ابن العصر قال : ما زلت اتتبّع اخبار العلماء * واتوسّم آثار الحكماء * حتى جمعتني المزلّفة * بعصبةٍ من طلّاب الفلسفة * قد احدقوا كالدارة * حول شيخ رقيق العبارة * دقيق الاشارة * اذا كلّم امتلك النفوس * واذا علّم اوعب المعقول والمحسوس * فاقبلت عليه وقد اندفع يجول في مضمار العلّة والمعلول * فقال قد علمتم يا حَلَبة هذا الميدان وحِلْية هذا الزمان * ان عقل البشر يتمو اليوم بوابل العلم وشمس الحقائق فلا يعيش على دمن الوهم تحت غيابات الجهل وقد قطّع قيود الاوهام وعدل عن ترّهات الخرافات فلا يخضع الّا لما كان حقًّا ظاهرًا ولا يرتع الّا حيث كان العلم ناضرًا . وان رمتم مني الشواهد على ذلك فحسبي بحث العلّة والمعلول دليلًا على صدق ما اقول : فقد قام ارسطو في مقدّمة الفلاسفة وجعل العلّة فاعليّةً ومادّية وصورية وغائيّة[1] فحذا اجدادكم العرب حذوهُ وكذلك من جاء بعدهم حتى اتّسع نطاق العلم واشتدّ ساعد اهل النقد فامعنوا في هذه المباحث حتى بلغوا قاصيتها * وملكوا ناصيتها * وميّزوا بين قشيبها ورثيثها * وعرفوا سميها من غثيثها * وليس من قصدي الآن بيان ما ابرموا وما نقضوا * ولا استقراء ما اقرّوا وما دحضوا * وانما قصدي ان ادلّ ركنًا طالما حرصوا على قيامهِ * واسندوهُ بالاوهام فتزّعزعهُ من امتهامهِ * واعني بهِ ما اصطلحوا على تسميتهِ بالبديهة زعمًا ان للعقل موادّ غير التي تصل اليهِ عن طريق الحواس او الصور التي ينقلها التصوُّر عن مواد الحواس . فاعتقادي ان الانسان لا يحصل على شيء من العلم الّا لم يحصل على صورةٍ ما في ذهنهِ الّا

(1) مثَّل الامثال على تقسيم ارسطوطاليس للعلة التمثال الخشب فانهُ معلول العلل الاربع تاحت التمثال وهو العلة الفاعليّة والنجّار الذي نحت التمثال منهُ وهو العلة المادية والصورة التي في ذهن النحات والتي نحت التمثال عليها وهي العلة الصورية والغاية التي نحت التمثال لها وهي العلة الغائية

بالنظر والكسب واذا شئتم فقولوا بالاختبار والمزاولة والذين يزعمون ان العقل فاعل بذاته اذا نبهته الحواس ادرك ضرورةً وبداهةً بعض الامور التي لا اصل لها في مدركات الحواس فقد اخطأوا المحزّ وأبوا الاّ ان يشيدوا بناءهم على اركان مفوّضة لاغراض في النفوس وامانيّ في الصدور. ولعلكم ترمونني بانني قد ابهمت المقال فدونكم ايضاح ما اردته بلا اشكال وذلك ان جمًّا غفيرًا من الفلاسفة يقولون بان في الانسان جوهرًا مجردًا عن جسده هو نفسه. وان هذه النفس تبتدئ افعالها فيه بعد ان تؤثر فيها المحسوسات الاّ انها لمّا كانت روحًا صرفًا لم يكن كلٌّ ما تدركهُ حسّي الاصل بل انها تولّد من تلقاء ذاتها مدركاتٍ روحانيةً صرفة لا مستخرجة من مدركات الحواس ولا حاصلة بنظر واختبار وتنظم مدركات الحواس في سلكها أحكامًا وافكارًا وما ضاهى ذلك. فهذه المدركات الروحانية هي ما يُعرَف عندهم بالبديهيّات او الضروريّات كالاوليّات التي عليها قيام العلم وكقولنا ان لكل معلول علّةً وهو ما نحن بصددهِ الآن. فهذا ما انكرهُ والذي أريد نقضهُ حتى لا أُبقي لهم حصنًا يتمنعون فيهِ ولا ركنًا يعتمدون عليهِ. على اني اذا حاولت نقض دعاويهم في البديهيّات كما ضاق بي ما نحن فيهِ من المقام وخارت قوتي عن الكلام فاكتفي الآن بابطال دعواهم في العلّة والمعلول

ومحطُّ الفرق بين ما يقولون بهِ وما نذهب اليهِ ان العلّة عندنا متقدّمة على المعلول فهي سابقٌ والمعلول تالٍ يتلوهُ بلا تخلف والعلّة عندهم سابق ذو قوة على انتاج ذلك التالي بحيث ان وجود المعلول يتوقّف على تلك القوة في العلّة. فنحن لا نعترف بوجود قوة في العلّة وهم يدّعون وجود القوّة فيها لغاياتٍ لهم واضحة(٢). فهذا اوّل ما أُريد دحضهُ ثم ادحض امرين آخرين احدهما ان حكمنا على ان لكل معلول علّة حكمٌ بديهيٌّ ضروريٌّ قد فُطِرنا على التسليم بهِ بلا نظر ولا استقراء والثاني انهُ اذا كان هذا الحكم ضروريًا فهو واقعيٌّ صحيح. اما الاول وهو ان في العلّة قوة على انتاج المعلول فدعوى بلا دليل لاننا لا نرى القوة في العلّة ولا نلمسها ولا نشمّها ولا ندركها بشعر آخر من مشاعرنا فحواسنا لا تدلّنا على ان في العلّة قوّة. وكذلك اذا تأمّلنا في صور المحسوسات التي تنطبع على نفوسنا فكيفما حلّلناها او ركّبناها او جرّدناها او عمّمناها او قابلنا بينها في مشابهة او مخالفة لم نجد في العلل منها قوة على انتاج المعلولات وانما نجد العِلَل سوابق والمعلولات توالي بلا تخلف كما بيّناهُ آنفًا. فان كنّا لا نجد اثرًا للقوة في العلّة بعد اعمال قوى العقل طرًّا وتقليب المحسوسات وصورها بطنًا وظهرًا فليت شعري كيف يسوغ لنا ان نحكم بوجودها وبني على ذلك الحكم قصورًا باذخة الجدران شامخة الاركان وكيف ندّعي مراعاة الحق ونحن نصدُّ عن سماعهِ ونعرض عن اتّباعهِ. فان كان فيكم من لا يرضيهِ

(٢) اذا ثبت وجود القوة في العلة سهل البرهان على وجود قوة وراء الطبيعة تدبر افعالها وجرّ ذلك الى اثبات قضايا عديدة من القضايا اللاهوتية وغيرها

كلامي . ويستطيع اقناعي والخاصي . فليكشف الحجاب عن الاوهام . وليُفِض من رواقه على الافهام

قال الباحث وكنت اسمعهُ وانا أرى خلاف ما يرى واتململ حصرًا على مثل حمر الغضا . فاجتني النفس ان اتصدّى لسجاله ولو لم اكن ممن يقوى على جداله . فقلت اتأذن يا قطب الفلسفة لمثلي ان يخالف مذهبك على اعترافه بتراهة قدرك ورفعة منزلتك فاني لولا اقتناعي بصدق ما سابدي ورغبتي في معرفة الحق وانجلاء الباطل لم اكن لابسط ما عندي على ما بي من قصر الباع وقلّة الاطّلاع امام محفل حافل يستوقف النعام الجافل . قال هات فالمرء باصغريه والعلم لا كبيريه والحق لا عالي عليه . فقلت يا مولاي انّا ندرك وجود قوة في العلّة ولو لم ندركها بقوة من قوى العقل التي ذكرت . ولكني لا اريد ان اسمّي ما ندركها به لعلمي انك تنكر وجود تلك القوة كما ذكرت . على انهُ ان كانت العلّة خالية من القوة على انتاج المعلول وكانت سابقًا فقط والمعلول تاليًا لا غير فلمَ لا نسمّي كل سابقٍ علّة وكل تالٍ معلولاً . لمَ لا نقول ان الساعة التاسعة هي علة الساعة العاشرة كما نقول ان النار هي علّة الحرّ . ولمَ لا نقول ان الخريف علّة الشتاء كما نقول ان المغنطيس علّة جذب الحديد ولمَ لا نقول ان الليل علّة النهار كما نقول ان اللطمة علّة الالم فان التوالي بين تلك المتواليات كالتوالي بين هذه العلل والمعلولات واذا لم تكن العلّة والمعلول الاّ سابقًا وتاليًا فما بالنا لا نسمّي كل سابقٍ وتالٍ علّة ومعلولاً ولمَ نحكم ان هذا السابق فيه قوة على انتاج هذا التالي فنسمّيها علّة ومعلولاً ونحكم ان ذلك السابق لا قوة فيه على انتاج ذلك التالي فلا نسمّيها علّة ولا معلولاً

قال لقد احسنت فيما أبنت فاننا قد اعتدنا التمييز بين توالٍ وتوالٍ والمتعارف بين الناس ان في العلة قوة على انتاج المعلول . ولكن لمّا لم تكن هذه القوة موجودة كان اعتقادهم هذا خطأً قد توصلوا اليه بالعادة وتكرار المشاهدة[٣] فانهم اذ كانوا لا يرون هذا التالي الاّ مع رؤية السابق قالوا ان في السابق قوة على احداث التالي فاخطأوا

فقلت ومن اين اعلم ان جمهور البشر قد اخطأوا وانا على ما ارى احكم من نفس طبعي ان هذا التالي متعلّق بذلك السابق وان ذاك التالي غير متعلّق بسابقه مع انه يتلوهُ على الدوام واما قولك اننا نعتقد ذلك بالعادة وتكرار المشاهدة فمردود لاني احكم ان العقرب علّة الي من لدغها اياي مرة واحدة ولا احتاج للحكم كذلك الى مئة لدغة او مئتين فلا اظن ان العادة وتكرار المشاهدة يفعلان ما تقول

قال فان لم يقنعك ما قلتُ فدونك هذا التعليل[٤] وهو اننا مفطورون على الحكم بوجود تالٍ عند ظهور سابقٍ له . فاذا رأينا النار مثلاً حكمنا بالسليقة انها تحرق كما يحكم الحيوان بالسليقة ان الماء يرويه فنسمّي هذين المتعاقبين علّة ومعلولاً ونحن لا نعرف دوام تعاقبهما الاّ بالسليقة . فقلت وهذا التعليل احق

(٣) هذا مذهب الفيلسوف الاسكوتلندي هيوم (٤) وهذا مذهب برون الاسكوتلندي

ذاك . ولا فرق بينها على ما ارى الاّ أنّا في الاوّل نعرف العلّة والمعلول بالعادة والاختبار وفي الثاني نعرفها بالسليقة التي فُطِرنا عليها فيبقى بعض اعتراضي في مكانهِ وهو أنّا لماذا نحكم بالسليقة على بعض المتواليات بانها علل ومعلولات ولا نحكم كذلك على البعض الآخر

فقال وما قولك بتعليل من قال[٥] ان العقل يصوّر لنفسهِ القوة في العلّة ليعلّق الاشياء بعضها ببعض فلا تكون القوة في العلل بل تكون تصوّرًا في النفس . فقلت وهذا لا يحل المشكل يا مولاي والاّ فلِمَ نتصوّر هذه القوة في بعض المتواليات ولا نتصوّرها في البعض الآخر . ولست اريد ان اطيل عليك المتواليات فاني اعلم ان الاقوال في العلّة والمعلول كثيرة[٦] ولكني ارغب البك ان تطلعني على رايك في ما عثرت عليهِ[٧] جديدًا لعلي اجد عندك ثبتًا له او ردًّا عليهِ . انك يا مولاي تجاري فلاسفة هذا العصر فلا ريب انك تتابعهم على ان حواس الانسان ستٌّ لا خمسٌ وان الحاسة السادسة هي حاسة المقاومة العضلية التي تدرك بها صلابة الاجسام مثلاً وثقلها وما شاكل[٨] . فانّا اذا وضعنا يدنا على جسم لا نعلم هل هو صلب او لا ما لم نشعر انهُ يقاوم قوة يدنا اي قوتنا العضلية فنحكم بصلابتهِ وكذلك اذا رفعنا جسمًا ثقيلاً نحكم بثقلهِ من مقاومتهِ لقوتنا العضلية . ثم اني اذا امسكت قطعةً من الحديد فوق مغنطيس كبير اشعر ان المغنطيس يجذب الحديد واني ابذل قوتي على مقاومة جذبهِ وابقاء الحديد فوقهُ . اما كوني اشعر بقوة تخرج مني لمقاومة جذب المغنطيس فاوكّده كما اوكّد وجودي ولا يسع عاقلاً انكارهُ . واما كون المغنطيس يجذب الحديد بقوّة فيهِ فاشعر بهِ بحاستي المذكورة كما اشعر بحاسّة البصر ان هذا الجسم متحرّك . فحكمنا بان العلة ذات قوّة تنتج المعلول يحصل من شعورنا بتاثير تلك القوة . ولما كانت القوّة واحدة على اختلاف ظواهرها وكانت ظواهرها عامّة للاجسام باسرها[٩] كان في كل علة منها قوّة على انتاج المعلول . وهذا اراهُ واضحًا ثابتًا بشهادة حاسّة المقاومة كما يثبت عندي ان الجسم الفلاني متحرّك بشهادة حاسّة البصر . فما تقول في ذلك

فاطرق الشيخ هنيهةً ثم قال اني لا اعطي جوابًا حتى اتروّى ما قلت فكلامك جديد عندي وجوهرهُ عظيم . اقول هذا وانا مقرٌّ لك بالفضل عليَّ فقد علّمتني ما لم اعلم وما علم المرء الاّ قطرة من غمر او لحظةٌ من دهر فما تقول في دعوى من يقول ان حكمنا بان لكل معلول علّة حكم ضروري بديهي عام لكل فرد عاقل من افراد البشر . فان كان هذا الحكم صحيحًا وجب ان يكون تصديقهُ عنصرًا من جملة العناصر التي جبلت منها الفطرة البشرية وان يكون هذا العنصر داخلاً في جبلة كل فرد كامل

(٥) هذا مذهب الفيلسوف الجرماني كنت (٦) ذكر الفيلسوف الشهير السر وليم هملتن ثمانية اقوال في ذلك في كتابهِ المسمّى ابحاث في الفلسفة (٧) اشهر من يعتمد على هذا المذهب الفسيولوجي الانكليزي كربنتر

(٨) كانت هذه المدركات تعدُّ قبلاً من مدركات حاسة اللمس واما الآن فقد افردوا لها الحاسة المذكورة

(٩) هذه السُنّة اثبتها المتاخرون حديثًا

الفطرة من افراد البشر. لكنّ بعض الناس لا يصدقون هذا الحكم فلا يكون بديهيًّا ضروريًّا بل يكون مكتسبًا من التجربة والاستقراء

قلت كل مسالة يتوقف حلُّها على استقراء كل فردٍ من افراد البشر يتعذّر الحكم فيها. على اني اعلم من نفس فطرتي لا بالنظر ولا بالكسب انهُ لا يمكن حدوث شيء بلا محدثٍ لهُ ولا استطيع ان اتصوّر معلولاً بلا علّة. واظنُّ ان كل عاقلٍ يجري في ذلك مجراي وشاهدي تواريخ البشر واقوالهم وافعالهم في كل زمان ومكان. هذا واذا ثبت ان المعلول ينتج عن قوةٍ في العلّة وانهُ ليس تاليًا مستقلاً عن العلّة كل الاستقلال كان وجود معلول بلا علّةٍ محالاً فضلاً عن ان العقل لا يستطيع تصوّرهُ

فقال ان ثبت. ولكن ولو ثبت ان العقل لا يستطيع ان يصدّق الاّ ان كل معلول لهُ علّة فهل يتعيّن ان يكون نظام الكون مطابقًا لما يصدّقهُ العقل. ومن اين نعلم انّا لا نستطيع ان نتصوّر الاّ الصحيح الواقع دون الكاذب المعدوم. بل اذا اعملنا النظر تبيّن لنا ان العقل قد لا يمكنهُ ان يصدّق الاّ ما هو خطأ ألا ترى ان من يركّب اصبعهُ الوسطى على سبابتهِ ويلمس باغلتيهما جسمًا مستديرًا يشعر انهُ اثنان ولا يستطيع ان يصدّق الاّ انهُ يلمس جسمين مع انهُ في الواقع لا يلمس الاّ جسمًا واحدًا. وان من خرقت يدهُ لا يستطيع ان يصدّق الاّ ان الالم في يدهِ والصحيح انهُ في دماغهِ لا في يدهِ. فاذا كنا لا نستطيع الاّ التصديق بان لكل معلول علّة فلا يلزم ان يكون ذلك صحيحًا

قلت لا ادري هل يقع مثيلك هذا في محلّه فان المثالين اللذين مثلتها على ان العقل قد لا يستطيع ان يصدّق الصحيح لا يفيدان الغرض المطلوب لان الخطأ فيهما انما هو في الحس لا في العقل فالعقل يحكم بحسبما يصل اليهِ عن طريق الحواس فان وصل الحس كما في صورة المحسوس حكم العقل على المحسوس بالصواب وان وصل الحس مغيّرًا عن صورة المحسوس حكم العقل بالخطإ بالنسبة الى المحسوس ولكن بالصواب بالنسبة الى الحواس. واما اذا لم يكن حكم العقل متوقفًا على ما يحتمل الخطأ فلا يكون ما فطر على تصديقهِ محتملاً للخطإ ما لم تقم الادلّة على اننا مفطورون على تصديق الخطإ او على ان عقولنا تخطئ في الحكم ولو بلغتها صورهُ كلها صحيحة الاشكال والاوضاع والعلاقات. وذلك لا تستطيع اثباتهُ على ما ارى فلا يحق لك ان تدّعي امكان الخطإ في حكم العقل. فهذا الذي ارتئيهِ مختصًا فان استطعت نقضهُ وبيان فسادهِ افلحتَ عنهُ والاّ فاني بهِ اقول ما دامت العلّة تعمل في المعلول

تقليد الزجاج المخموت

اخترع ليون فيدال فرنسيًّا لتقليد الزجاج المخموت وهذه وصفتهُ: ١٨ جزءًا من السندرك و٤ من المصطكى و٢٠ من الايثر يضاف ٨٠ جزءًا من البنزول الى كل ١٠٠ جزء منها